علامة العنوان في ديوان أم درمان تحتضر للشاعر محمد الواثق - مقاربة سيميائية

د. عادل عثمان الهادي

الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية- كلية الآداب- جامعة الملك فيصل وجامعة الخرطوم

المستخلص

تحتل السيميائيات في المشهد النقدي والفكري الحديث مكانة خاصة، فهي نشاط معرفيٌّ بالغُ الخصوصية من حيث أصوله وامتداداته وأساليبه التحليلية، إنها علم يستمد أصوله ومبادئه من مجموعة كبيرة من الحقول المعرفية كاللسانيات والفلسفة والمنطق والتحليل النفسي والأنثروبولوجيا، وتنطلق أهمية هذه الدراسة من الرهان على قراءة ديوان شعري حديث هو ديوان (أم درمان تحتضر) للشاعر محمد الواثق، وقد أحدث الديوان إشكالية، وأثار جدلا في مضمونه وهدفه ومحتواه، وتعددت نتائج قراءاته. ونرى أن القراءة السيميائية من أنجع القراءات؛ لكشف ما هو مخبوء من معان ودلالات وراء الرموز والعلامات التي يشتمل عليها الديوان.

وتتسم عمليات التأويل السيميائية بجدلية متواصلة تبحث عن الأسرار الخفيّة، والدلالات العميقة للخطاب الشعري في الديوان موضوع الدراسة، وكأن الكلمات الظاهرة ليست إلا قناعًا لا ينكشف إلا لمن امتلك القدرة على التأمل والتبصر، ومن هنا كانت هذه الدراسة محاولة جادّة للكشف عن مضامين ديوان شاعر معاصر له خصوصيته في الأداء، وله خصوصيته في موضوع ديوانه الذي تركز على هجاء مدينته (أم درمان)..

الكلمات المفتاحية: أم درمان تحتضر، القلق، الغربة، الاغتراب، الهرب، نساء أم درمان، الضجر

Abstract

Semiotics holds a special position in modern criticism and intellectual thought. It is a highly specialized cognitive activity in terms of its origins, extensions, and analytical methods. It is a science that draws its principles and foundations from a wide range of knowledge fields such as linguistics, philosophy, logic, psychoanalysis, and anthropology. The importance of this study lies in the challenge of examining a modern poetry collection titled "Um Durman Tuhtadher" by Mohammed Al-Wathiq. The collection has posed problematic questions and sparked debates regarding its content, purpose, and multiple interpretations. We believe that semiotic reading is one of the most effective approaches to uncover hidden meanings and connotations behind the symbols and signs contained in the collection.

Semiotic interpretation processes are characterized by an ongoing dialectic that seeks the hidden secrets and profound connotations of poetic discourse in the subject of this study, namely the collection itself. It is as if the apparent words are merely a mask that can only be unveiled by those who possess the ability to contemplate and perceive. Hence, this study represents a serious attempt to reveal the contents of a contemporary poet's collection, who has its uniqueness in performance, and revolves around the theme of criticizing his city (Um Durman).

Keywords: Um Durman Tuhtadher, Anxiety, Alienation, Estrangement, Escape, Women of Um Durman, Boredom

مدخل البحث:

أصبح العنوان في الدراسات الحديثة ذا أهمية خاصة، وفي النص الشعري والسردي بدرجة واحدة من الأهمية. ويعدّ العنوان مفتاحا لدراسة النص، وفهم أعماقه ومدلولاته؛ لأنه يجمع بين رواية الشاعر أو الكاتب ورؤيته الإبداعية، وبين تعبيره عن الواقع، وهذا ينطبق على العنوان الرئيس، والعناوين الداخلية. مثل عنوان الديوان العلامة الجامعة التي تنطلق منها دراسة العلامات، وقد اتسمت عناوين محمد الواثق في ديوانه(أم درمان تحتضر) بالانسجام والتماهي مع كل رؤاه وقناعاته التي صبها شعرا في هذا الديوان بداية من العنوان الرئيس، وانتقالا للعناوين الفرعية الداخلية لقصائد الديوان. وقد عبّرت هذه العناوين عن أزمة الشاعر وأزمة الوطن في نظره بصورة عامة، بل عبرت عن إشكالات وطنه في تقدمه وتطلعات أهله. وقد عكست كل العناوين في المدونة موضوع الدراسة روح الرفض والمفارقة والهرب والشعور بالغربة والرغبة في الاغتراب.

موضوع الدراسة:

تتناول الدراسة قراءة سيميائية لأبرز العلامات في ديوان أم درمان تحتضر للشاعر محمد الواثق وفق آليات المنهج السيميائي البيرسي، وفق مستويات تأويل العلامات الثلاثي: المؤول المباشر، والمؤول الدينامي، والمؤول النهائي، وبيان ما تضطلع به العلامات الرئيسة في الديوان، وما يرجع إليها في الديوان من وظائف تتمثل فيما يخلص إليه المؤول النهائي من جنوح نحو التأويل والخلود لمعان مستنبطة من معالجة الشاعر وفق قرائية النص سيميائيا.

أهمية الدراسة:

تتمثل أهمية الدراسة في تسليط الضوء على ديوان شعري معاصر مثَّل منحى شعريا خاصا في موضوعه وطريقة معالجته، تمثل في هجاء مدينته أم درمان والتزم بحرا شعريا واحدا هو بحر البسيط، وقد اخترنا المنهج السيميائي آلية لاستكناه ما يزخر به الديوان من دلالات وإيحاءات؛ نحاول استكشافها من خلال القراءة السيميائية، ومعتمدين على المنهج البيرسي في قراءة العلامات البارزة في الديوان بوصفها هاديا، ومفتاحا للدراسة.

إشكالية البحث وتساؤلاته:

تنطلق الدراسة من عدة تساؤلات: ما هي العلامة الجامعة في الديوان؟ وما هي العلامات التي ترجع إليها رجوع الفرع إلى الأصل؟، وما هي السيرورة الدلالية التي قطعتها العلامة في الديوان معتمدة على المقام التأويلي الدينامي؟ وما هي الوظائف التي اضطلعت بها العلامة ومتعلقاتها في الديوان ممثلة في المؤول النهائي؟ وهناك تساؤلات ناتجة يروم البحث الإجابة عنها وهي: كيف تمكن الشاعر من التعبير عن القضية المحورية موضوع الديوان وهي هجاء أم درمان؟ وما هي الانفتاحات الدلالية، والأبعاد العميقة التي يثيرها ما عرض له الشاعر من أفكار ومعان في خدمة المعنى الرئيس القائم عليه الديوان؟ وهل أم درمان هنا مقصود بها المدينة التاريخية لذاتها؟ أم أنها مجرد رمز إسقاطي قصد من خلاله الشاعر النفاذ لقضايا أخرى وطنية واجتماعية وسياسية؟ ومن خلال التأويل القائم على العلامة الجامعة والعلامات الفرعية المتعلقة بها، هل استطاع الشاعر التعبير عن المعاني التي يرمي إليها؟ ولماذا يبدو الشاعر كارها الإقامة بوطنه، نازعا نحو الاغتراب والرحيل عنه؟ وما دواعي هذا الهروب عن الوطن؟ وما الذي يبغضه الشاعر في وطنه وبني وطنه؟ ولماذا تمنى لمدينته كل هذا الخراب والدمار؟.

منهجية الدراسة:

تستأنس الدراسة بالمنهج الوصفي الاستقرائي للظاهرة. كما تستعين بآليات المنهج السيميائي البيرسي وآلياته؛ للكشف عن المخبوء وراء الرموز والعلامات البارزة في الديوان.

تقديم:

لمّا كانت " السيميائية " هي المنهج الذي فرضته علينا قراءة ديوان الشاعر محمد الواثق (أم درمان تحتضر)، للنّفاذ إلى عمق الديوان واستكناه بواطن الخطاب فيه، كان لابُدَّ أن نقارب مفهوم " السيميائية " بوصفها المنهج الذي سنستأنس به في فحص نصوص الشّاعر ومعاينتها، والكشف عن شفراتها الجماليّة وسيرورتها الدّلاليّة؛ فما " السيميائية " ؟ ومن أبرز مؤسسيها ؟ وهل عرفها النّقد العربيّ القديم؟ وما علاقتها بالمعارف المجاورة لها؟ وما الأسس النظرية التي نهضت عليها في النقود الغربية؟ وما إجراءاتها التطبيقية؟

السيميائية مفهوما لغويّا:

يحيل مصطلح (السيميائية) على ألفاظ مشتقة من جذر (و. س. م) ومنها: - الوسم وهو: (أثر الكي، والجمع وسوم... وفي الحديث: أنه كان يَسمُ إبل الصدقة، أي يُعَلِّمُ عليها بالكي..)(ابن منظور، مادة سوم) وجاء في جمهرة اللغة»:

«السِّيمِياء مَمْدُود، والسِّيما مَقْصُور،...، وَهُوَ عَلامَة يعلّمون بهَا أنفسهم فِي الْحَرْب» " (ابن دريد, 1087م،2/ 863). وما جاء في شعر النقائض قول جرير يهجو خصومه الثلاثة الفرزدق والبُعيث والأخطل في بيت واحد قوله:

لمّـا وضَــعْـتُ على الفرزدقِ مَيْسَـــمِي وضَـــغَا البُعَيثُ جَدَعْتُ أنفَ الأخطلِ

وفي التنزيل العزيز: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ (القلم: 16). وقال الليث: " والسِّيما ياؤها في الأصل واو، وهي العلامة يُعرف بها الخير والشَّر. قال تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ (البقرة: 273)، وفيه لغة أخرى السِّيماء بالمد؛ قال الراجز:

غلامٌ رماه الله بـالحســنِ يـافعًـا لهُ سِـيماءُ لا تَشُــقُّ على البَصَـر"

(ابن منظور، مادة سوم)

السيميائية المفهوم والمصطلح:

تتعدد التسميات لمصطلح " السيميائية " وتختلف من باحث لآخر، ومن مرجعيّة إلى أخرى، سواء من المنظّرين الغربيين أو عند النقاد العرب. وكأنما في هذا التعدد ما يوحي بعدم الاتفاق على هُوِّيته وتأكُّد إشكاليَّته، ففي المرجعيّة الفرنسيّة سمّاه المؤسسان لهذه النظرية (سوسير ورولان بارت من بعده) بالسيميولوجيا (Semioligie)، بينما ساد مصطلح السيميوطيقا (Semiotique) في الأوساط الأنجلوسكسونية، والأمريكية منذ (شارلز ساندرز بيرس). ولم يزل السيميائيون الغربيون في محاولاتٍ جادّة لتحديد الفرق بين مفهومين يَبْدُوان مختلفين من الناحية اللفظية، وهما: السيميولوجيا (Semioligie) أو السيميوطيقا (Semiotique).

فهل هما بمعنى واحد على الرغم من اختلاف لفظيهما؟ وهل يحدد أيٌّ منهما حقلًا معرفيًّا لا يعدوه؟

فقد قدّم معجم (Hachette) الموسوعي تعاريف وتفاريق واضحة بين هذه المصطلحات؛ إذ عَرّف السيميولوجيا بأنها: "علم يدرس العلامات وأنساقها داخل المجتمع"، وحدد السيميوطيقا بأنها "النظرية العامة للعلامات والأنظمة الدلالية اللسانية وغير اللسانية"، وحدد "السيميائيات (Sémantique)" بأنها "دراسة اللغة من زاوية الدلالة". معنى هذا أن السيميولوجيا علم، والسيميوطيقا نظرية، والسيميائيات دراسة أو منهج إجرائي نقدي (باديس فرغالي،2008م،12). لكن الظهور الحقيقي لهذا العلم كان مزدوجا، في صورة أوروبية على يد اللساني السويسري **فرديناند دي سوسير** Ferdinand de Saussure "(1857-

1914م)، وولادة أمريكية على يد الفيلسوف والعالم الأمريكي"**تشارلز ساندرز بيرس** Charles Sanders Peirce" (1839- 1914م)، فقد شهد هذا العلم لحظتي ظهور المصطلح في مكانين مختلفين، إذ أشار الأول (**سوسير**) إلى علم جديد يدرس حياة الدلائل داخل الحياة الاجتماعية وسماه السيميولوجيا (دي سوسير، 1990م ص92-95). أما (بيرس) فكان يبتكر في الوقت نفسه تقريبا تصوره الخاص للسيميوطيقيا الذي يعتمد شفرة موضوعية وجمالية مخالفة لشفرة اللغة المألوفة، ويمتد هذا ليدرس أي شيء في الكون كالرياضيات والأخلاق والميتافيزيقا والكيمياء (دانيال تشاندلر،2008م،30). أما على المستوى العربي فثمة خلط نلمسه في التعامل مع المصطلح النقدي الذي مازال يعاني الفوضى والاضطراب، إذ نُلْفي كثيرا من الدارسين العرب يستعملون مصطلحيِ (السيميوطيقا) و(السيميولوجيا) على سبيل الترادُف، ويختلفون أيما اختلاف في ترجمة مصطلح (السيميائية)من الفرنسية، أو الإنجليزية، فمنهم من يستعمل مصطلح (السيميائيات)، أو مصطلح (السيمائية) وهو المصطلح الرائج بين صفوف المغاربيين. ويذهب عبد القادر قنيني مذهب الذين آثروا المضمون الدلالي للمصطلح حيث يقترح مصطلح علم الدلالة (دي سوسير،1987م،25)، بينما يُفضّل عادل فاخوري مثلا لفظ (السيمياء)باعتباره مصطلحا عربيا أصيلا وشائعا في كتب التراث (عادل فاخوري، د.ت، مجلد 24، ص187).

وعبد الملك مرتاض يتساءل وفي أكثر من موضع: من أين؟ إلى أين ؟ وبأي منهج نقتحم النّص؟ وهذه التساؤلات تقوده إلى المزج بين السيميائية والتفكيكية (مرتاض،1992م 9).

نتبيّن مما سبق أنه لا يمكن تجاهل إسهام الباحثين العرب القدامى في هذا العلم، فقد شغلت مسألة العلامات - من حيث وظيفتها وتأويلها - التفكير النّقدي العربيّ منذ القديم باعتبارها "إشكالًا (علاميًّا) يمسّ مسألة المعنى ومسألة الدلائل ومسألتي التمثيل والتأويل فهناك: السّمة، والعلامة، والإشارة والإيماء ومعادن المعاني والدلائل باعتبارها أشياء تدل على أشياء أخرى". (الحلواني، 2012م،23) وإن لم تكن تلك الإشارات قد وصلت إلى ما وصلت إليه السيميائية المعاصرة إلا أنه يمكن اعتبارها أصولًا يُتكأ عليها في الدرس السيميائي العربيّ.

وقفة عند سيميائية بيرس:

بما أننا اخترنا سيميائية شالز ساندرس بيرس منهجا في قراءة ديوان (أم درمان تحتضر) لا بد من الإشارة إلى أن هذه العلامة عند بيرس ثلاثية المبنى (ماثول يحيل على موضوع عبر مؤول)، بينما نجدها ثنائية عند سوسير"دالّ أو صورة سمعية ومدلول أو صورة ذهنيّة" (العابد، 2011م،20). وقد انطلق (بيرس) من مبدأ العلامات، يقول في إحدى محاضراته: " لا نملك القدرة على التفكير بلا علامات " (خمري،

1997م،162) وسوّغ لهذا المبدأ أن يُعدّ الكون الذي يمثل أمامنا "شبكة غير محدودة من العلامات؛ فكلُّ شيء يشتغل بعلامة، ويُدلّ باعتباره علامة، ويُدرك بصفته علامة ". (بنكراد، 2012م،84). وبعبارة أخرى، إنها تصور متكامل للعالم باعتباره سلسلة لا متناهية من الأنساق السيميائية، فالعلامة لا تحيل على موضوع فحسب، إنها بالإضافة إلى ذلك، تكشف عن معرفة جديدة تخصُّ هذا الموضوع.

إن العلامة عند بيرس وحدة ثلاثية المبنى، وهذه البنية الثلاثية تتطلب تعريف العناصر التي تكوّنها وتحديد دور كل عنصر داخل عمليّة إنتاج الدّلالة:

الماثول: يعيّن الماثول الشيء علامة منظورا إليه داخل التحليل الثلاثي بوصفه عنصرا داخل سيرورة التأويل (بنكراد، 2012م، 78)، فالماثول هو الأداة التي نستعملها في التمثيل لشيء ما.

الموضوع: هو ما يقوم الماثول بتمثيله، سواء كان هذا الشيء الممثل واقعيّا، أو متخيّلا، أو قابلا للتخيّل، أو لا يمكن تخيّله على الإطلاق. ويلخص بيرس هذا بقوله: " إنه موضوع العلامة الذي تفترضه لكي تأتي بمعلومات إضافيّة تخص هذا الموضوع "(بنكراد، 2012م، 79).

المؤول: ثالث عنصر داخل نسيج السيميوز، وهو ما يحددها في نهاية المطاف إنه عنصر التوسط الإلزامي الذي يسمح للماثول بالإحالة على موضوعه وفق شروط معيّنة، وهو ما يجعل الانتقال من الماثول إلى الموضوع أمرا ممكنا، إنه يحدد للعلامة صحتها ويضعها للتداول كواقعة إبلاغية (بنكراد،2012م، 78)، ويقدّم محمد بن عيّاد تعريفا موجزا لمستويات المؤول الثلاثة.

المؤول المباشر: المقدّم للمعلومة الأوليّة الخاصّة بالشيء، وهو ما يفيد معنى العلامة، وحدود معرفته مرتبطة بالمعطيات المباشرة. **المؤول الدينامي** أو" الرَّمزي " وهو الذي يرتقي بالعلامة من التعيين البسيط إلى التأويل بمفهومه الشامل، ولذلك هو يؤسس على قاعدة المؤول المباشر ولا وجود له إلا في نطاقه. وبمجرد تخلّص المؤول الديناميكي من أثقال المؤول المباشر، يدخل ضمن سيرورة اللامتناهي التأويلي. **المؤول النهائي** وهو الذي يكبح جماح المؤول الدينامي بصفته قوّة هائلة يجب أن تستقر على دلالة ما. ومن هنا يكون المؤول النهائي هو ما تريد العلامة قوله، أو ما تستدعيه أي ذلك الأثر الذي تخلقه هذه العلامة في الذّهن بعد أن يتطوّر الفكر تطوّرا مقبولًا (عياد، 2007م، 170).

التعريف بصاحب الديوان:

الشاعر محمد الواثق يوسف المصطفى ولد في ديسمبر من العام 1936م بقرية (النية). وهي قرية تقع شماليّ الخرطوم بنحو خمسين كيلومتراً على الضفة الشرقية من نهر النيل، تخرج في مدرسة وادي سيدنا الثانوية؛ ليلتحق بكلية الآداب بجامعة الخرطوم قسم اللغة العربية، وتخرج فيها عام 1962م، بمرتبة الشرف الأولى. ثم التحق بجامعة (كمبردج) حيث حاز فيها على درجة الـ (M.L.H) ببحث أعده عن المسرح العربي القديم بعنوان (خيال الظل)، وذلك في العام م1967. عمل محاضرا بكلية الآداب جامعة الخرطوم، ثم أستاذا مشاركا، ثم رئيسا لقسم اللغة العربية. عمل عميدا للمعهد العالي للموسيقى والمسرح. ثم عميدا لمعهد البروفسور عبد الله الطيب للغة العربية بجامعة الخرطوم. له ديوان شعر (الفارس الأعزل) وديوان شعر (أم درمان تحتضر). له كتاب باللغة الإنجليزية صدر من دار جامعة الخرطوم للنشر تحت عنوان: (تاريخ المسرح العربي). توفي في عام 2014م، رحمه الله.

تقديم لدراسة الديوان:

طبعت أول طبعات ديوان (أم درمان تحتضر) بمطبعة دار الثقافة بيروت عام 1973م، ويشتمل على تسع قصائد دارت جميعها حول موضوع واحد هو هجاء أم درمان، وعلى بحر واحد هو بحر البسيط. ويظل الديوان – رغم ما لقيه من سيل النقد القادح في موضوعه وهجائياته لأم درمان – علامة فارقة في مسيرة الشعر العربي الأصيل في السودان، فهو نخلة متينة الجذور، باسقة الطول، تكاد تلثم من ذيل السحاب بلا كدٍ وإجهاد، إن ألقيت عليها حجراً ألقت إليك ثمراً. "هذا الشعر مازجه اللفظ الفحل، والمعنى البكر المرفود بالموهبة الحقيقية، والمعرفة العالية، والعلم الغزير" (أسعد العباسي، 2009م). وقد هال البعض أن يمس الشاعر قداسة أم درمان، فتصدوا له بالرد نثراً وشعراً، وقد جاءت بعض ردودهم رصينة وموضوعية، وجاء بعضها متفلتاً وقاسياً. وقد لخص الدكتور عبد اللطيف سعيد (عبد اللطيف سعيد، 2007م) هذه الردود بأن طائفة قالت إن دافع محمد الواثق لهجاء المدن هو الحقد، والبعض يقول إن دافعه العبثية، وآخرون قالوا إن غرضه تهديم الواقع لبناء مستقبل أفضل، وطائفة نسبته للاستعلاء الصفوي الذي يصيب المتعلمين، وهناك من قال إن دوافع الحطيئة قد تقمصته.

قراءة الديوان في المقام التأويلي:

تمثل علامة (أم درمان) العلامة الجامعة في الديوان، وإليها ترجع بقية العلامات الغالبة على الديوان رجوع الفرع إلى الأصل سواء بالعلاقة الأيقونية القائمة على المشابهة أو الأمارية القائمة على السببية أو غيرها. ويمكن تتبع المسيرة الدلالية وتأويلاتها لهذه العلامة اللغوية (أم درمان). وأهم العلامات الفرعية وهي نساء أم

درمان ورجالها و(مونيك) وحالة الضجر والهرب والاغتراب والشعور بالغربة والضيق والتبرم والإحباط واليأس والقسوة وتمني أقسى أصناف العذاب لهذه المدينة.

المؤول المباشر:

العلامة الجامعة في الديوان هي (أم درمان). وفي معناها البدئي المباشر هي تلك المدينة السودانية العريقة المعروفة. وقد اختلفوا في دلالة الاسم ومن أين جاءت هذه التسمية. أم درمان كموقع قديم اسمها امتداد من حضارة الشهيناب، أما كاسم، فالاسم نوبي عنجي علوي - نسبة لمملكة علوة -وعاصمتهم مدينة سوبا. وقد كان اسم درمان Derman منتشراً بينهم. ويقال كانت هناك سيدة نوبية علوية (نسبة إلى مملكة علوة) تسكن في المشرع التجاري بحي (الموردة) ولديها ابن يدعى (درمان) فكان الذين يفيدون للتجارة في هذه المنطقة يطلقون عليها اسم أم درمان أي والدة درمان تأدبا وتقديرا لها، وقيل (الدرمان) اسم يطلق على الأطفال الصغار، وقد تستبدل (أل) التعريف بأم في اللغات العربية القديمة فيكون معنى أمدرمان (الدرمان) أي جمع الأطفال الصغار أما إذا كانت منفصلة (أم درمان) فتعني أم الصبية أو أم العيال. ولفظ أم العيال يطلق على المرأة الحكيمة المدبرة التي تحسن إدارة شؤون من تقوم برعايتهم والإشراف عليهم، حتى إن الشاعر الجاهلي الشنفرى الأزدي أطلقها على صديقه (تأبط شرا)؛ لأنه كان يحسن رعايتهم، وتدبير شؤونهم أثناء الغزو والحرب فقال في المفضليات (الضبي، د.ت،110):

وأمّ عِيَالٍ قَدْ شَهِدْتُ تَقُوتهُمْ إذا أَطْعَمَتْهُمْ أوْتَحَتْ و أقلَّتِ

تخافُ علَيْنَا العَيْلَ إنْ هيَ أكْثَرَتْ ونحنُ جِيَاعٌ أيّ آلٍ تألّتِ

وقيل نسبة لنوع من الشجر يكثر فيها. ووظيفة المؤول المباشر هي تحديد نقطة الانطلاق للدلالة التأويلية أو السيرورة المنتجة للدلالة، في مسار(السيميوز) وانطلاقه في مسيرة التأويل. والعلامة الجامعة هنا هي أم درمان، وهي في معناها المباشر تدل على مكان بعينه يتمثل في مدينة تاريخية عريقة لها مكانتها في نفوس أهل السودان؛ ولذا يتبادر سؤال: لماذا خصها الشاعر بالهجاء أول ما بدأ هجاء المدن السودانية؟ ولماذا أوقف عليها ديوانا بكامله صب فيه جام سخطه وغضبه عليها وعلى أهلها؟. إذن الديوان في المستوى القرائي الأول يُصنَّف ضمن غرضٍ شعري معروف هو الهجاء، وعلى نوع مخصوص منه غير شائع في الأدب العربي هو هجاء المدن.

إذن فما هي السيرورة الدلالية أو (السيموزيس) التي يمكن أن تمثلها العلامة الجامعة (أم درمان) ومتعلقاتها الفرعية في هذا الديوان (أم درمان تحتضر)؟ وهذا يقودنا للدخول مباشرة في مسيرة التأويل لهذه

العلامة، واستنطاقها لنعرف ما هو متوارٍ من معان خلف هذا الهجاء القاسي لهذه المدينة التاريخية العريقة المحبوبة لأهل السودان. إن الإجابة عن ذلك يتمثل في عدة تساؤلات تقتضي منا النظر في المستوى الثاني من التأويل(البيرسي) وهو مستوى المؤول الدينامي. وسنتناول العلامة الجامعة في الديوان ومتعلقاتها ممثلة في العلامات الفرعية في ضوء المؤول الدينامي وسيرورة الدلالة مستفيدين من دلالة سيميائية عتبة العنوان الرئيس والعناوين الفرعية ممثلة في عناوين القصائد في الديوان.

المؤول الدينامي:

يؤسس هذا المؤول على تناسي المؤول المباشر أو على أنقاضه، ولا يمكن أن يكون له وجود ودلالة إلا من خلال استحضار ووجود المؤول المباشر، ولكن عليه ألا يتوقف عند المعنى المباشر للعلامة الجامعة فلا بد أن يتخلص من معناها المباشر الحرفي حتى ينطلق في مسيرته الدلالية من خلال مسيرة التأويل، وتمثِّل السيرورة الدلالية سلسلة من الإحالات معتمدة على قراءة ورؤية المتلقي وثقافته وتستمر هكذا حتى يوقفها المؤول النهائي. لأن المؤول المباشر "لا يسعف في استكناه الدلالات إلا باستدعاء مؤول دينامي ننتقل بواسطته من المعاني المباشرة إلى المعاني الإيحائية أو المستلزمة قرائيا، إذ نستدعي تجربةً سابقةً في الوجود عما هو متحقق نصيا، وهي الكفيلة بتناسل المعنى وطرحه في متاهات التأويل...وهذا المؤول يستدعي ضرورة موسوعة إدراكية" (العابد، 2013م،112). وقد فطن مؤلف الديوان لذلك كيف لا وهو المتعمق في دراسة النقد الحديث ومدارسه، فقد كان موقفه واضحا منذ أن درسنا على يديه طلابا في جامعة الخرطوم، وحين مشاركته في الليالي الثقافية قارئا لقصائد من ديوانه؛ فقد كان يستمع لما يدلي به النقاد بآراء مختلفة حول الديوان، بعضها يمسه شخصيا ولكنه لا يتدخل بأي تعليق، لا نافيا ولا موافقا لما يعرض من آراء نقدية؛ بحجة أن المبدع ليس هو المتحكم في دلالة عمله الأدبي فهو قارئ له مثله ومثل الآخرين، وهذا مبدأ قد سنته البنيوية على لسان أحد روادها (رولان بارت) الذي أرسى مقولة (موت المؤلف) أي قطع الحبل السري الرابط ما بين العمل الأدبي والمبدع، فالمبدع بمجرد تقديمه لعمله الأدبي للقراء ليس له عليه سلطة وإنما يزوره ويقرؤه مثل الآخرين(رولان بارت، 2019م،35). وهذا يوسع مفاهيم العمل الإبداعي من خلال مفهوم نظرية التلقي التي تعتمد على ثقافة المتلقي، وفهمه للعمل الأدبي باعتبار أن القراءة من قارئ نموذجي متمكن تعدّ انتاجا جديدا للنص، وسبرا لأغواره وتفتيقا لمعانيه.

ومن الدراسات القيمة التي تناولت ديوان الشاعر دراسة الأستاذ مصطفى محمد أحمد الصاوي بعنوان: (قراءة في ديوان محمد الواثق أم درمان تحتضر)؛ حيث خلص إلى فهم عميق خلاصته في قوله: " إن الأقلام التي تناولت العمل سعت في الغالب الأعم لمحاكمة الشعر والشاعر، فقد مسَّ الأخير في ظنهم شرف مدينة أم درمان وعفتها، وخطل هذا الرأي يكمن في محاكمته للتجربة الفنية ورؤية الشاعر، وغاب عنهم أن

العمل في مجمله إبداع تخيُّلي، ورؤية فنية لا يشترط فيها تطابق مع الواقع بكل تفاصيله وجزئياته". (.مجلة الثقافة السودانية، العدد 29، أغسطس 1995م). إن جبل محمد الواثق الشعري الراسخ وقممه الهجائية السامقة يعتوره كثير من الرمز، ويكتنفه الابتداع الذاتي الخلاق، والوصول الى تلك القمم عن طريق تسلق هذا الجبل الضخم غاية عسيرة المنال لا تلين إلا للأقوياء، ولكن لابد من اعتلاء تلك القمم؛ لأن الصور لا تتضح على السفح من الجانبين إلا بهذا الاعتلاء الصعب. فالرمزية الكامنة ترتقي فوق موجودات الظواهر المادية المتناثرة في العالم الواقعي إلى مدارك الآمال والأحلام المنشودة في العالم المثالي، وتستنجد بالرمز كآصرة تربط بينهما، ومن قبل انتبه الناقدان (أوستين وارين ورينيه ويليك) صاحبا كتاب (نظرية الأدب)؛ لذلك عندما قالا: "إن الرمز موضوع يشير الى موضوع آخر لكن فيه ما يؤهله؛ لأن يتطلب الانتباه أيضاً لذاته بصفته شيئاً معروضاً" (مصطفى الصاوي، 1995م).

أ.سيميائية عتبة العنوان:

يعود الجذر اللغوي للعتبة لمادة (عَتَبَ) "والعتبة أسكُفّة الباب...وعتبات الدرج وما يشبهها من عتبات الجبال وأشراف الأرض، وكل مرقاة من الدرج عتبة" (الفراهيدي، د.ت، مادة عتب). واصطلاحا العتبات هي مجموعة النصوص التي تحيط بالمتن، وتحفزه من عناوين وأسماء المؤلفين والمقدمات والفهارس والحواشي وكل بيانات النشر التي توجد على غلاف الكتاب وعلى ظهره (بلال، 2000م، 21)

عتبة العنوان الرئيسة للديوان هي (أم درمان تحتضر) وهي في شكلها التركيبي النحوي جاءت في صورة الجملة الاسمية المكتملة، فأم درمان اسم علم لمدينة سودانية عريقة تعد الجزء المكمل لثالوث العاصمة المثلثة مع الخرطوم والخرطوم بحري، وهي ليست كسائر مدن السودان حينما يدور الحديث عنها، فقد تغلغلت بتاريخها العريق في وجدان أهل السودان، كما كانت موطنا لقامات عديدة في مجال العلم والسياسة والفن. وجاء خبر المبتدأ المكمل للجملة الاسمية في صورة جملة اسمية تدل على استمرارية الحدث المفضي إلى نهاية حتمية هي الموت فليس بعد الاحتضار إلا الموت والفناء عادة. وقد جاء في آخر بيت من أول قصائد الديوان مضبوطا هكذا "تَحْتَضِرُ" بينما الشائع في تسمية الديوان "أم درمان تُحْتَضَرُ". حيث قال: (الواثق، 1973م، 7)

ثمّ اصْـطَحَبْتُ كُمَيْتَاً اسـتلذّ بها وَخِلْتُ في سَكْرتي أم درمان تحتضِرُ

وقد مثلت (أم درمان) علامة جامعة وبارزة في الديوان كله، وحتى العناوين الفرعية للقصائد لم يخل منها عنوان كما لم تخل من ذكرها قصيدة في متنها، هذا إن لم ترد أكثر من مرة في النص الواحد، ومن تلك العناوين (لا حبذا أنت يا أم درمان من بلد) و (لكنّما أنت يا أم درمان) و(أم درمان تتزوج) و (أم درمان والانهزام)

و(نساء أم درمان) و(فضيحة أم درمان) و(أم درمان مهمومة) و(جنازة أم درمان). ولعله مما يحفز البحث ويشي بأهميته أن عنوان الديوان يشتمل على العلامة الجامعة التي تنطلق منها دراسة المحتوى سيميائيا.

وقد مثلت عتبة العنوان (أم درمان تحتضر) أول مدخل يشي بما تستكنّه نفس صاحب الديوان من قسوة وشدة على هذه المدينة التي اختارها بعناية ليتخذها أيقونة يصبّ عليها جام غضبه وسخطه، ويعالج من ثمّ من خلال هجائها قضيته، فهي أم درمان وهي العاصمة الوطنية وكثيرا ما تغنى بعشقها وجمالها أهل السودان عامة، ولعله لهذا السبب اختارها الشاعر من بين سائر مدن السودان لما لها من مكانة وقدسية اكتسبتها منذ تأسيها عقب نجاح الثورة المهدية في أخريات القرن التاسع عشر، حيث اتخذها المهدي ومن بعده خليفته عاصمة للدولة بديلا عن الخرطوم عاصمة الترك والإنجليز من قبل. عناها الشاعر دون غيرها في هجائه القاسي عن قصد؛ لأن قصديته في ثنايا الديوان ذات صلة وثيقة بما اكتسبته هذه المدينة من قدسية وتعظيم فسموها (العاصمة الوطنية) فكان منطلق الديوان هو الرجم والرمي لهذا التمثال الذي شاده أهل السودان زورا وبهتانا باسم الوطنية الزائفة وهم أبعد ما يكونون عن فهم الوطنية أو تمثلها في سلوكهم الجمعي والفردي ورؤاهم السياسية والاجتماعية والثقافية كما يتبادر ذلك من القراءة المتأنية لما وراء نصوص الديوان. وهذا يقودنا لتعليل بعيد، ولكنه مهم يبحث في أسباب اختيار الشاعر لهذه الطريقة في معالجة إشكالية حقيقية يراها في بني وطنه، فهم في نظره من أكثر الناس نفاقا وخداعا في موضوع الوطنية، وقد صور ذلك في عدة مواضع من الديوان (الواثق، 1973م 27،28)، كما أنهم أكثر الشعوب تغنيا باسم الوطنية والغناء للوطن، وهو يراهم أبعد الناس عن الوطنية بمفهومها الصحيح، فما آفة الأوطان إلا جناتها. هذه خلاصة القراءة المتأنية للديوان حيث أراد الشاعر أن يسلط الضوء على قضية أساسية وإشكالية في الشخصية السودانية فيما يتصل بمفهوم الوطنية الصحيح، فالوطنية عنده ليست أغاني وشعارات وقصائد تغنى، إنما هي سلوك اجتماعي وحضاري وإبداعي يتمثل في مجموعة العطاءات التي يقدمها أبناء الوطن بتجرد ومسؤولية تجاه وطنهم. وقد ذكر الشاعر محمد الواثق ذلك مرة في لقاء تلفزيوني في برنامج ساعة حرة (ويكيبيديا، 2006م) حيث قال بأنهم يتغنون بالوطنية من غير فهم، فهي في أفواههم مثل "حلاوة وطنية!!" هكذا قالها ساخرا من فهم بني وطنه لمفهوم الوطنية. وفي واحدة من إطلالاته النادرة في الرد على من يستهجنون موقفه الهجائي لأم درمان خاصة قال مرة: "يتسق شعري هنا مع التراث العربي الإسلامي والتوراتي، يتعلق الأمر هنا بالمدينة التي فسدت بعد مهلة إنذارها تجتاحها الأعاصير التي تتواصل أياماً حسوماً؛ فلا ترى لها من باقية!! قلبت مدينة صالح أعاليها أسافلها، وقد ترسل الطير تحمل حجارة السجيل كما في أمر مكة، وأضف إلى هذا قوم عاد وثمود وأصحاب الرس. الأمر لا يختلف كثيراً في الإرث التوراتي، شطت سدوم في مفاسدها فانطلقت البراكين والزلازل بل تعرض أهلها للمسخ، أتذكر ما حل بمدينة الأصنام في الجزائر؟ في هذا الإرث الإسلامي التوراتي تكون فيه الأعاصير والبراكين عنصر تطهير تستأنف الحياة بعدها على نمط الطاهرة المرجوة وإلا عاودت الأعاصير فعلها. إن مثل هذا الشعر سلك في عمق التراث العربي التوراتي واتخذ

الرمز منه" (صحيفة الصحافة، 22 أغسطس 2006م)، وقد صاغ هذه المعاني في قصيدته (أم درمان والانهزام) (الواثق، 1973م، 24).

أغْوَتْ سَدُومُ وشطّتْ في مفاسِدهَا حتى تردَّتْ وحَالَتْ دُونَهَا الظلمُ

لا تَجْزعَنْ فلهيبُ النَّارِ طهّرها ما عَادَ رِجْسَا على أصْلَابِها رَجِمُ

إذا امّحتْ أمَّةٌ من سُوءِ ما اقْتَرفتْ تعَاقَبَتْ بعدَها في أرضِها أُمَمُ

ب. السيرورة الدلالية:

أول ما يلفت الانتباه في قراءة الديوان قراءة سيميائية انطلاقا من العلامة الجامعة (أم درمان) هو سبب اختيار الشاعر لهذه المدينة ليتخذها رمزا لعموم أهل وطنه تماهيا مع إحساسهم بتقديسها وتقديرها، مقترنا ذلك بتقديس الشخصية السودانية لذاتها عامة، ولذلك اختار الشاعر أظهر رمز يجمع عليه المثقفون والعامة من أهل بلده ليطلق عليه حمم هجائه القاسي، محطما تلك الصورة الكائنة في أذهانهم عن أم درمان التي تمثّل لهم التاريخ المجيد والحاضر الجميل، فأراد أن يوقظ شعورهم بصدمة قوية حينما يتوجه إليها بهذا الهجاء. وهنا يمكن الاستئناس برأي مهم ورد ضمن مقالة نقدية للشاعر محمد عبد الخالق عن نص ديوان أم درمان تحتضر يقول فيه: "إن قصد هذا النص في تقديري صدمة للذوق العام الراضي عن نفسه فقد اختار الشاعر رمزاً عزيزاً، وبالقطع هو عزيز عليه هو نفسه، ليصب جام غضبه عليه، فهو يستهدف ما هو أبعد من مدينة أو عاصمة، ليستهدف أن يصدم حالة من الرضا المتبلد الذي يفوق حد الاعتزاز والعزة المرغوبة في اتجاه البذل والعطاء إلى حد مرضٍ بالفخر و العنجهية وتمجيداً للذات، تلك النظرة التي ترى كل ما هو سوداني متميزاً، فالمقصود ليس أم درمان المدينة وأهلها. ولا شك أن هذه النظرة التي تتجاوز حد القول بالخصوصية والتفرد تسيطر على جانب لا يستهان به من المزاج السوداني) (محمد عبد الخالق، صحيفة أخبار اليوم،2006م) هذا الرأي الحاذق نعده محاولة ناجحة إلى حد بعيد لاعتلاء تلك القمم السامقة لرؤية الصورة من الجانبين. أسعد العباسي، ويكيبيديا، 2009م). وكان نتيجة ذلك أن ظهرت عدة دواوين ترد عليه تمجد أم درمان وتشيد بماضيها وحاضرها وبعضها يتعرض للشاعر بالذم والهجاء القاسي. ولم يكن الشاعر يتضايق من تلك الردود الشعرية المادحة لأم درمان أو المنبرية للدفاع عنها بتمجيدها وتوجيه أقسى أنواع الهجاء له. فهو يرى أن هذه ظاهرة إيجابية وأن الوسط المتلقي بدأ يفهم جزءًا من الرسالة التي يحملها الديوان، فهو قد فهم شيئا منها وإن كان قد توقف عند الفهم الظاهري في ظنه، ولم يتعمق في مضمون الرسالة المقصودة من وراء هجائه لأم درمان، فهو قد رأى أنه من الناحية الأدبية والنقدية قد أفاد بعض فهمهم في تحريك راكد الإبداع فتحركت القرائح هنا وهناك وصدرت دواوين شعرية تعارض ديوانه (أم درمان

تحتضر) وتنتقد منحاه نحو أم درمان، منها قصيدة (أم درمان تزدهر) للشاعر عادل حسن طه وديوان (أم درمان الحياة) للسماني الشيخ الحفيان.. ولعلّ موقف الشاعر محمد الواثق من أم درمان وذمها يتوافق مع نظرة الشاعر الجاهلي تأبط شرا من قبيلته، فهو يُشْبِهُهُ في موقف الرفض المشترك بينهما، فقد كان لتأبط شرا ورفاقه من الصعاليك مواقف قوية مثلت الرفض لقناعة قبائلهم وخروجهم عليها بل وشدتهم عليها أحيانا، وإذا أراد الشاعر إهانة القبيلة عمد إلى أغلى ما تقدسه وتجله؛ فيتعرض له بالامتهان والاحتقار كما حدث من تأبط شرا حينما أراد استثارة القبيلة والامعان في إهانتها، حيث قصد جبلا تقدسه وتجله وتقيم عنده الاحتفالات وطقوس الفرح والتعظيم، وكان من عادتهم الطواف بذلك الجبل وعدم الصعود إلى قمته تقديسا وتطهيرا له، وهم يلبسون أزهى ثيابهم وأفخمها، فما كان من تأبط شرا إلا أن قرر الصعود إلى قمته في ثياب رثة وهيئة بالية مستعينا ببعض رفاقه لتعظم صورة الإهانة في نظر القبيلة، فقال بعد أن صعد قمته(الضبي، د.ت، 30-29):

وقـلـةٍ كسِـــنـانِ الـرُّمْـحِ بـارزةٍ ضَحْيَانةٍ في شهورِ الصَّيفِ محراقِ
بادرتُ قُنَّتَهَا صَحْبِي وما كَسِلوا حتَّى نَمَيْتُ إليها بعد إشـراقِ
بِشَـرْتَـةٍ خَلَقٍ يُوقى البنـانُ بهـا شـددتُ فيها سـريحا بعد إطراقِ
لا شـيء في ريـدها إلا نعـامتُها منها هزيـمٌ ومنها قـائمٌ بـاقي

والقصيدة من اختيارات المفضل الضبي في كتابه (المفضليات) والذين درسوا على يدي الأستاذ محمد الواثق يعرفون مدى إعجابه بهذه المجموعة الشعرية وحرصه على انتخاب عيونها ليبدع في تحليله في قاعات الدراسة، فلا استبعد تأثره بذلك الموقف وأشباهه. وربما تأثر أيضا بقصيدة (الأرض اليباب) لـ (تي إس إليوت) والتي أكسبته شهرة واسعة.

وقد يتبادر سؤال مهم هو: هل الشاعر لا يعرف قيمة أم درمان وقدرها كما يعرفه السودانيون قاطبة؟ أو أن الشاعر إن كان قد اتخذ من أم درمان (أيقونة) يعني بها كل الوطن من قبيل علاقة الجزء والكل، فهل هو مبغض وكاره لها حقيقة؟ الإجابة عن ذلك تكشف عنها القصيدة الثانية من الديوان (لكنما أنت يا ام درمان) ففي هذه القصيدة يؤكد الشاعر حبه الدافق لمدينة أم درمان ولوطنه عامة حب أضناه وبرى جسده، ولكن في المقابل الحب لا يمنعه من قول الحقيقة إن لم يجد طريقا لتوصيلها غير هذه الطريقة التي اختارها ممثلةً في هذه الصورة الرافضة لكل ما هو موجود ومعهود في وطنه مقبول ومسكوت عنه، ففي الأبيات الأولى من هذه القصيدة يقول: (الواثق، 1973م،9):

وَدّعْ لميسَ وداع الواثقِ الخالي قد كنتُ من أمرِها في أيّ بلبالِ
قد كان حبّك أوجاعا أكتِّمُها وأزجر الدمعَ لا يهمى بتَهْمَالِ
ما كنتُ أحسبُني أنّي تُخلخِلُني بعدَ التجاريب منّي ذاتُ خَلْخَالِ
غادرتني مثقلا أرعى النجومَ ضَنىً لا أستقرُّ من البلوَى على حَالِ

فقد اتخذ الشاعر من (لميس) رمزا لأم درمان التي لم يحظ فيها بالراحة والسعادة التي كان يرجوها، وقد مثلت (لميس) المحبوبة هنا على عادة الشعراء العرب أيقونة إذ تجمعها مع العلامة الجامعة أم درمان المشابهة؛ ولذا عبر الشاعر عن حبه لها، ولكنه حب خاصّ، حبّ كله أوجاع وآلام (قد كان حبك أوجاعا أكتمها). ويصور ألمه واضطرابه كلما اقترب منها (قد كنت من أمرها في أي بلبال)، إنه الإحساس بالغربة بين الأهل وفي ربوع الوطن، والغربة هنا تمثل أمارة تتماهى مع العلامة الجامعة باعتبارها سببا ونتيجة، فالغربة ناتجة من علاقته المتوترة مع أم درمان و قناعات وسطها الاجتماعي والسياسي والثقافي الرافض لها، فالشاعر يحاول جاهدا أن ينشد لها الصلاح والأَصلاح حسب رؤيته الخاصة، لكنها لا تعينه فقد (تمرغت في أباطيل وأوحال) ونتج عن ذلك أن احتار الشاعر في أمر وطنه، وفي أمر مدينتهم المقدسة (أم درمان) (قد كنت من أمرها في أي بلبال). وقول الشاعر:

ما كنتُ أحسبُني أنّي تُخلخِلني بعد التَّجاريبِ منّي ذاتُ خَلْخَالِ

هذا البيت يجسّد حب الشاعر الغريزي لوطنه ومرتع صباه، وأم درمان تمثل رمزا لذلك الوطن، ولكنه في الوقت نفسه يراه وطنا بائسا وحائرا قعدت به همة أهله، وأثخنت جراحه الاختلافات الإيديولوجية والجهوية و الإثنية القبلية، وعلا فيه صوت النفاق والخديعة مما أقعده عن السير في ركب الأمم، فبقي خائرا وضعيفا بسبب مواقف أهله، فهم في نظره يتغنون بوطنية زائفة أقرب للنفاق منها إلى الحقيقة والمصداقية، فقد ذكر ذلك الشاعر نفسه في إحدى اللقاءات التلفزيونية وفي واحدة من البرامج الثقافية الحرة (برنامج ساعة حرة، تلفزيون السودان 2006م). ذكر أن مما يؤلمه أن أهل بلاده يحسبون أن الوطنية هي تلك الأغاني والأناشيد التي تمجد الوطن وتفوه بها حناجرهم من غير تطبيق لمعناها أو تمثُّلٍ لقيمها، واستخدم مستهجنا منهم ذلك السلوك أن يتعاملون معها كأنها "حلاوة وطنية!!" ونسوا أن الوطنية الحقة تتمثل في الصدق في تمثل المبادئ التي تعلي من شأن الوطن، وتسعى لتقدمه وتعمل على تفجير الطاقات وتنمية القدرات البشرية والقانونية والاجتماعية والسياسية التي ترتقي بالوطن حتى يتبوأ مكانه بين الأمم. وهنا يحضرني رأي للشاعر أسعد الطيب العباسي (مقال سابق، 2009م) يمضي في هذا المنحى حيث يرى أن الواثق أعطى لوطنه الكثير، ولا يزال عطاؤه مستمراً استمراراً لا يتسق إلا مع الحب الذي يكنه لبلاده ومدنها، ولا نعيب الطبيب الذي

يعمل مشرطه في جسد العليل ليشفيه عن طريق الجراحة. والناظر لأشعار محمد الواثق الأخرى سيدرك مدى ذلك الحب. يقول في قصيدته (مثاب مصطفى) التي رثى بها والده قوافٍ مطرزة بالحنين لسودانه وأهله والحزن يمازجه والغربة توجعه:

أرتـاد أســبـابَ الـغـنى فـتـحلّني ضــيفـا على لمْعِ السَّــرابِ الواهمِ

أتركـتَ نهر النيـل يصـــدحُ طيرُهُ وشـــريـتَ تغريـدا بِبَخْسِ دَراهمِ

وقد يرى البعض أن الهجاء طبع غالب على الشاعر بدليل أنه تعرض لعدد آخر من مدن بلاده بالهجاء كذلك! وفي ظنّي أن هجاء الشاعر لأم درمان مختلف تماما من حيث المحتوى والقصدية والغاية عن هجائه لغيرها من مدن السودان، وربما كان هجاؤه لتلك المدن الأخرى كان من قبيل التعمية والتمويه على هجائه لأم درمان، أو من قبيل المداعبات الأدبية والرغبة في استثارة المساجلات الشعرية، ولم يكن قصده كذلك في هجائه لأم درمان، إذ أوقف عليها ديوانا كاملا نسج قصائده برويَّةٍ وعمقٍ ورصانةٍ في الأداء؛ لأنه ينطلق من فكرةٍ ومن قضيةٍ اختار لها هذه الطريقة في المعالجة.

ومن العلامات الفرعية التي حفل بها الديوان واتخذها الشاعر أمارات تلتقي مع العلامة الجامعة أم درمان علامة المرأة في أم درمان، فهو حينما يصف المرأة في أم درمان ويقسو في أوصافها لا يعني نساء أم درمان ووصفهن حقيقة بذلك الوصف بقدر ما يتخذ المرأة أمارة تدل في مظهرها ومخبرها دلالة أمارية على المعنى الذي يرمي إليه، فهو حين وصف نساء أم درمان بقوله (الواثق، 1973م، 25):

إن زانها أدبُ

أو لونها الذهبُ

ما نفعُ مظهّرِهَا

لو جسمها خشبُ؟

ألا يتبادر إلى ذهنك وصف القرآن للمنافقين في الآية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون: 4)، فهو يربط بين تغنيهم الزائف بالوطنية وحقيقة مواقفهم تجاه الوطن في هذا التناص الاجتراري مع الآية القرآنية. وفي هذه القصيدة نفسها تطل علينا علامة أخرى لا تخلو منها قصيدة في الديوان وهي الاغتراب عن

الوطن والبحث عن بديل اضطرته له ظروف بلده بعد أن اضطربت حاله واصطرعت هواجس الفراق في نفسه، ولم يعد يطيق البقاء في ما أسماها (بقعة النكد) وفي تسميتها بقعة النكد مبادلة في التسمية بين المقدس والمدنس إذ عرفت أم درمان بـ(بقعة المهدي) بعد أن طهر السودان من دولة الكفر كما يسميها أنصاره واتخذها عاصمة لدولة المهدية. والشاعر يبدو أنه ينضح بالحب لأم درمان، ولكنه حب من نوع خاص حب كله أوجاع وآلام:

قـد كـان حـبّـك أوجـاعـا أكـتِّـمُـهـا وأزجـرُ الـدمـعَ لا يَـهْـمِـى بـتِـهْـمـاَلِ

فهو يحبها الحب الغريزي للوطن، ولكنه يبغضها للسبب ذاته لأنه لا فكاك عنها وشأنها يهمه وأمرها يشغله، كل هذه المعاني يحملها قوله (الواثق، 1973م، 9):

غَادرتني مُثقلا أرعى النجومَ ضنىً لا أســتقرُّ من البلوَى على حـالِ

وحبّ الوطن غريزة في النفس لم يخالفها صراحة إلا شاعر العربية أبو الطيب المتنبي الذي عرف باختلافه عن الآخرين، وشقه طريقا غير معهودة عند الناس فيقول (البرقوقي، 1980، ص241):

غَـنيّ عـن الأوطـانِ لا يســتـفـزُّني إلى بَـلَـدٍ ســـافـرْتُ عـنـهُ إيـابُ

وفي سياق الحديث عن ثنائية الحب والبغض في الديوان تتجلى لنا علامة فرعية بارزة وتبدو ملامحها واضحة في الديوان تكشفها علامات أخرى ذات صلة وثيقة بها هي علامة (الغربة) والشعور بالضجر والتبرم من البقاء بأم درمان وبالوطن عامة، تفصح عن ذلك الأبيات الأولى من الديوان (الواثق، 1973م، 5):

لا حبّـذا أنـت يـا أم درمـان من بلـد أمـطـرتـني نـكـدا لا جـادك المـطـر

من صَـحْنِ مسْـجدِها حتى أرومَتِهَا حطّ الخمولُ بها واستحكمَ الضَّجَرُ

فالشاعر في حيرة من أمره مع أم درمان (قد كنت من أمرها في أي بلبال) فهو حينا يحدثنا عن حبّ برى جسده وأضناه ألما:

غـادرتني مثقلا أرعى النجومَ ضــنىً لا أســتـقـرُّ من البلـوَى على حـالِ

ولكنه سرعان ما ينتفض متبرئا منها ومن كل ما يربطه بها الواثق، 1973م، 11):

يا صــوتُ دعْني فما أم درمان منزلتي لــولا الأواصـــرُ مـن عـمٍّ ومـن خــالِ

ظلت لميس تمثل صورة أم درمان في ديوان الشاعر،فهي رمز للسرور والفرح الذي فارقه في موطنه وبين أهله، وأصبح يشكو الوحشة والغربة في الإقامة بينهم، ويطلب الراحة في الرحيل بعيدا عنهم؛ لأن أم درمان بفعل أهلها تقتل فيه الهمة والتطلع، فيقول في استفهام تعجبي (الواثق،1973م، 10):

أكلَّمـا قُـمْـتُ للـعَـنْـقَـاءِ أنشِـــدُهَـا قــامَـتْ لميسُ إلى هَجْري وإذلالي؟

فهو يريد أن يرحل عنها ويبتعد عنها؛ حفاظا على ما تبقى من همته وعزمه، وكي يحتفظ لها ببعض وجه جميل فيها يشده نحوها سماه أحيانا الأواصر التي تشده نحو أهله، فهي ديار العم والخال، فهو لا يبغضها حقيقة ذلك البغض الذي يتبادر كما قلنا من ظاهر الديوان، فهو يبين سبب رغبته في الرحيل (الواثق، 1973م، 10):

كيـمـا ارتِّقُ لأم درمـانَ مـا اخْـتَرمَـتْ تلـكَ العنـاكـبُ من جُلبـابهـا البـالي

كي أسـألُ السحبَ أن تَغْشَى أباطِحَها بـواكـفٍ مـن عـمـيـمِ المزنِ هـطَّـالِ

حـتى أقـول إذا الـتـاريـخُ عـاتـبَـني لقـد دفعـتُ حمِيـدا مَهْرَهـا الغـالي

فهو ليس رحيل انقطاع وإنما رحيل تواصل، فعبارة (مهرها الغالي) كفيلة ببيان ما يكنه لأم درمان من حب وتعلق. لكن في القصيدة نفسها سرعان ما تعود أم درمان (لميس) هي المثبطة للهمة فيقول:

لكـنّمـا أنْـتِ يـا أم درمـان غـانـيـةٌ تـمـرَّغَـتْ في أبـاطـيـلٍ وأوْحَـالِ

هجَّنْت ِكلَّ جميلٍ كنتُ أعشَـــقُـهُ فـلا أرى في جـمـيـلٍ غـير مُـحـتـالِ

يصفها بكونها (غانية) والغانية هي الحسناء التي اكتفت بجمالها الفطري الطبيعي عن أية إضافات تجملها، والذنب ليس ذنبها كما يبدو بل ذنب أهلها، فهذا التعبير(تمرغت في أباطيل وأوحال) تتبدى فيه الثنائية الضدية بوضوح مقروءا مع الذي يليه (فلا أرى في جميل غير محتال) فلك أن تقف عند هذه المفارقة التصويرية في بيان سلوك هذه المحبوبة الذي لا يجد له الشاعر تفسيرا فقوله (هجنت كل جميل كنت أعشقه) يمثل علامة تعبيرية عما يكنه لها من حب وقوله(لا أرى في جميل غير محتال) يمثل علامة وصفية

تنفتح على التفسير الاجتماعي والثقافي والسياسي الذي يرفضه ويبغضه الشاعر. وعند القراءة السيميائية لابد من فك شفرات العلامات لمعرفة ما تحمله من دلالات متوارية حيث يتركّز الإحساس بالغربة في هذه الأبيات كما يتركّز الإحساس بالرفض أيضا، حيث يراها غانية لا تستحق ما تمرغت فيه من الأباطيل وما لحقها من الخطايا، ولعله يأخذ على بني وطنه مآخذ سياسيةٍ واجتماعيةٍ وثقافيةٍ منها: التبدل والاحتيال في المواقف السياسية والاجتماعية باسم الدين حينا، وباسم الوطنية أحيانا. وفي ظني أن الصوت السياسي يظهر في هذه الأبيات، فكلما حاول الشاعر أن يرمي بصره في الأفق القادم عله يرى صورة زاهية وطاهرة لبلده تأبى أفعال الساسة والقادة في بلاده إلا أن تهزم هذا الأمل والتطلع نحو الأفضل في نفس الشاعر (الواثق، 1973م، 10):

أكلَّما شِــدْتُ تمثـالا لعفَّتِهـا تَشِـيدُ للعارِ صَـرحا فوقَ تمثالي

ولعل الهرب من الواقع المرير الذي يعايشه الشاعر في الواقع لا يتلاءم مع قناعاته، ولكنه عبر عنه بهذه الصورة الرمزية في صورة هذه المدينة المقدسة عند أهل السودان. وقد أخذ هذا الهرب صورتين في الديوان هرب إلى عوالم أخرى حددها بالشرق أو بالغرب وهرب إلى الخمر وعالمها التخيلي، ولكنه كان أكثر تركيزا على هربه للغرب الأوروبي خاصة (الواثق، 1973م،18):

نشـدتك اللهَ هل في الأرضِ متَّسـعٌ غربا إلى فاسَ أو شـرقا إلى الصـين
شرقا إلى الصينِ أو من دونِ ذا بلدٌ فـيـه أحـلِّـقُ أو قـبرٌ يُـواريـني

يطلب ذلك وهو شديد التعلق بوطنه (يا أمنا ما عقوقا إن رحلت غدا) كما أنه مبغض للإقامة فيه متعلق بحياته التي عاشها في أوروبا، ولا يجد بُدًّا من الرحيل والاغتراب إذ أضناه انتظار صلاح الحال في بلده، والذي أقعدته مفاهيم أهله وسلوكياتهم السياسية والاجتماعية المعوجة من الانطلاق نحو الرقي والتطور ولذا يقول (الواثق، 1973م،32):

يـا أمَّنـا مـا عُقُوقـا إن رحلـتُ غَـدا فقد خَجِلتُ وأغرى العارُ بالسَّـفرِ
إن تُبلغنّي قرى باريسَ أجنحـةٌ قُرب الحقولِ فلا تَشْـتدِّي في أثرِي
متى حللتُ فنهرُ الرونِ يُشـعِرُني بـأنَّني بشـرٌ من طينـةِ البَشَـرِ
فـإنْ بدَتْ قُربه مونيكُ أبصِـرُها فما النساءُ وما أم درمان يا بصَري

ويبدو أنه رحيل من غير رجعة، كما أنه رحيل مبرر فلم تعد تجدي الحيلة في البقاء وقد يئس من صلاح الحال فهو في الاغتراب عن وطنه يبحث عن ذاته وعن كيانه المفقود. (فنهر الرون يشعرني بأنني بشر من طينة البشر). والمرأة في الديوان مثلت أيقونة متكاملة للحياة سواء في وطنه أو مغتربه الذي يتوق إليه، فالمرأة هي رمز الحياة بكل تفاصيلها المَرْضي عنها والمرفوض منها؛ ولذلك شكلت المرأة حضورا بارزا في الديوان، فهو حينما يتحدث عن نساء أم درمان وقد أوقف قصيدة كاملة على هذا العنوان (نساء أم درمان) (الواثق، 1973م،35)، وأم درمان المرأة عند الشاعر أخذت أشكالا مختلفة فهي أمه (يا أمنا ما عقوقا إن رحت غدا) و(يا أمنا من أبونا...) وأحيانا تبدو أم درمان زوجة للشاعر في قصيدة عنوانها (أم درمان تتزوج) (الواثق، 1973م،13):

وَعَدتني بعدَ قُربي منكِ يا أم درمان بالولدِ لَكِنْ كعهدكِ يا أم درمان لم تَلِدي
قالوا تزوجتَها من بعدِ ما اكتَهَلَتْ وأذبلَ الدهرُ منها زهرةَ الجسَدِ
وقال قائلُهم أنثى بلا رَحِمٍ تهوَى الرجالَ ولا تُبقي على أحَدِ
قد كان مضجعُها قبرا لطائفةٍ من المُحبِّين أفنتهُمْ بِلا عَددِ

وفي قوله (وعدتني بعد قربي منك بالولد) تظهر لنا علامة الإنجاب في مقابل علامة العقم. والإنجاب علامة أيقونية في علاقتها بالزوجة أم درمان، ولكنها علامة ظلت غائبة وغيابها أورث الشاعر الحزن والألم، والإنجاب يأخذ معاني عديدة منها إنجاب الوطن أبناء وطنيين حقيقيين ومخلصين وأصحاب همم عالية، يمثلون قادة أفذاذا ينتشلون وطنهم من دركه السحيق!!، والعقم في المقابل يأخذ في القراءة السيميائية بعدا آخر فهي (أنثى بلا رحم) وكم تعلق بها من المحبين الراجين منها إنجابا للقادة الأفذاذ الذين يغيرون واقع أمتهم، ويشقون طريقها نحو التقدم بين الأمم، ولكن هيهات!!

وعلامة الغربة والاغتراب في الديوان شديدة الارتباط بعلامات أخرى هي الضجر وتمني أقسى درجات العذاب لهذه المدينة ممثلا في الحرق والبراكين والغرق، فهو لا يبالي حينما يتبرأ من كل شيء يربطه بأم درمان إلا آصرة الدم التي لا يستطيع عنها فكاكا إذ لا سبيل لإنكارها، فلم يعد بعد ذلك يؤلمه ما يصيبها من حمم النيران التي يرجو أن تطهرها من رجسها. وهو هنا يتماهى مع شخصية نيرون في قسوته على مدينته روما، والذي أضرم فيها النيران وراح يعزف ويغني في مكان عال يشهد كل عذاباتها رجاء أن تطهرها من رجسها النيران كما يظن، فيقول (الواثق، 1973م، 12):

ما لي إذا الوخزُ أدمَاها ومزَّقهَا لا الجلدُ جلدي ولا السربالُ سِربالي

نيرونُ أضْـــرِمْ فلا يبقى لهـا أثرٌ واعزف نشيدَكَ فوقَ المرقَبِ العَالي

ويكاد الشاعر يفصح في هذا الموقف عن سبب كرهه وبغضه الحياة بالوطن الذي أثخنته الجراح في تعليل سياسي ذي بعد اجتماعي عميق، فقد ذكر شيئا من آفات المجتمع التي أقعدت وطنه، ولم يستطع قادته علاجها ممثلا في ذلك التنازع العرقي والقبلي والجهوي. وهو لا يرى في الأفق علاجا لهذا الداء المتمثل في التنافر والتباغض، والذي قعد ببلده عن اللحاق بركب التقدم بين الأمم، ولم يفلح الساسة وقادة المجتمع في علاجه، وإنما زادوه اضطراما واشتعالا مراعاة لمصالحهم الحزبية والسياسية الخاصة. فيقول معلنا الرحيل عن أم درمان(الوطن) إذ لم تسمع نصحه وبقيت سادرة في غيها فيقول:

أما أنا إن جَعَلْتَ النارَ ألسِـــنةً نيرونُ دَعْني فقد أعلنتُ تَرْحَالي

من كلِّ أحمدَ من أوشيكَ منقبضٌ من كلِّ هارونَ لا يرضَى بملْوَالِ

وكل اسم من هذه الأسماء الأربعة يمثل وجهة من وجهات وطنه الأربع بما في ذلك جنوب السودان قبل انفصاله عن الوطن الأم.

كما أن علامة الشعور بالغربة في أم درمان(الوطن) مشتركة مع علامة الاغتراب والتعلق بوطن بديل لم يوفق الشاعر في الوصول إليه أو ظل ينشده في دواخله ممثلا في الغرب عامة وفرنسا على وجه الخصوص، ارتبط كل ذلك بعلامة الضجر والتبرم والضيق من البقاء في أم درمان وهو يستدعي استعدادا وصبرا من نوع خاص عند المحن، فيستدعي محنة المسلمين في (غزوة أحد) حينما اشتد عليهم الأمر، والتفّ عليهم العدو من كل ناحية ودارت عليهم دائرة الحرب، كما يستدعي صبرا على البلاء لا يقل عن صبر نبي الله أيوب على مرضه (وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) (ص: 41-42)، فيقول(الواثق، 1973م، 14):

إن كانَ حكمُكَ أنا لا نُفارقَها فاجْعَلْ لنا أجْرَمَن قد ماتَ في أُحُدِ

أو هَبْ لنا منك صبرا نَستعينُ بهِ أو ما حبُوتَ به أيوبَ من جَلَدِ

في المقابل تتبدى علامة الاغتراب بصورتها المشرقة الزاهية، يتبعها تفتق مزاج الشاعر عن كل وصف بديع لائق براحته النفسية واعتدال مزاجه هناك، حيث (مونيك) ممثلة الوجه المشرق للمرأة والحياة، ولا تخلو قصيدة من ذكرها:

متى أمرُّ على باريسَ مُنطلقا حيثُ الأنيسُ وحيثُ العيشةُ الرغدُ
قد كنتُ ألقى بها مونيكَ يُعجبني جمالهُا الغضُّ من لينٍ ومن أَوَدِ
مجاورٌ ثغرُها البسامُ بعضُ فمِي وعاقدٌ خُصْلةً من شَعْرِهَا بيدِي

المؤول النهائي:

علينا تذكر أن المؤول النهائي ليس مستقلا عن حركة المؤول الدينامي، إلا أنه يمثل قوة تكبح جماح هذا المؤول وتمنعه من الشطط والابتعاد كثيرا في تهويم التأويلات، ويقترح على الذات المؤولة خانة تأويلية تمنحها الراحة والاطمئنان، والسياق النصي هو المتحكم في تحديد هذه الخانة التأويلية. إنّ وظيفة المؤول النهائي هي إيقاف حركية هذه السيرورة الدلالية من الشطط التأويلي، ويجب التأكيد على أن كلمة نهائي هنا لا تعني النهائية داخل الزمن، بحيث إن الدلالة التي يحددها النهائي ستشتغل على أنها دلالة مستمرة في التأويل هي أيضا فالمؤول النهائي هو نهائي داخل سيرورة، أي داخل سلسلة من الإحالات، ذلك أن ما يتم اقتراحه بوصفه دلالة نهائية قد يصبح نقطة انطلاق لسيرورة جديدة من الإحالات والتفسيرات "إنه ينتج سلسلة من التسنيات التي تدرج التأويل داخل مسارات معينة، وكل مسار يملك قوانينه(سياقه) الخاصة" (بنكراد، 2005م،26-25).

وبعد تلك الرحلة البيرسية في (ديوان أم درمان تحتضر) يمكننا التوقف عند أهم الوظائف التي اضطلعت بها العلامة الجامعة وعلاماتها الفرعية في الديوان، وتمثلت أهم تلك الوظائف في الوظيفة النفسية والوظيفة الإيديولوجية والوظيفة الوجودية والجمالية.

الوظيفة النفسية: وتمثلت الوظيفة النفسية فيما يزخر به الديوان من نفثات الضجر والرفض والشعور بالغربة والرغبة في الاغتراب والهرب من هذا الواقع المرير الذي يعيشه الشاعر في أم درمان (وطنه) وقد سماها (بقعة النكد).

والسيكولوجية هي الوظيفة المهتمة بدراسة الحالة النفسية المسيطرة على الشاعر والتي توجه دلالة العلامات التي يتضمنها الديوان وتفسيرها بصورة واضحة بوصفه تأويلا نهائيا للعلامة. وقد تبدّت هذه العلامة بوضوح في عدة صور تعبيرية في الديوان، فكانت علامة السأم أبرز العلامات النفسية في الديوان وقد ظهرت في أول قصائد الديوان، ثم تتابعت بتعبيرات وصور مختلفة في بقية قصائد الديوان (الواثق، 1973م، 6):

يا بعضَ أهْلِي سئمتُ العيشَ بينكُمُ وفي الرحيلِ لنا من دُونكم وَطَرُ

سـأَلتـك اللهَ ربَّ العـرشِ في حُـرقٍ إني ابتأسْـتُ و إنّي مَسَّـني الضـرُ

فقد تضافرت علامتا السأم والبؤس في هذين البيتين لتصورا حالة الشاعر النفسية التي لا تطيق البقاء بأم درمان فتشرئب نفسه للفكاك من هذه القيود والانطلاق بعيدا. وقد تمثلت الوظيفة النفسية في هروب الشاعر من واقعه إما لعالم الخمر والسكر عله ينسى بقاءه في أم درمان، أو تأكيد رغبته في الرحيل والابتعاد إلى عوالم أجمل ذاق فيها طعم الحياة الهانئة والعيش الرغيد هناك (الواثق، 1973م، 11):

فرحتُ أنشـدُ في الحانوتِ سـلوتها وأكتـمُ النـاسَ أقـوالي و أفعـالي

فـمـا هـنـاك يـقـينٌ بـتّ أعـلـمُـه سِـوى الزجاجةِ تجلو الشكَّ بالمالِ

وقوله: (الواثق، 1973م، 19):

حتى أرى في خيـالِ السُّـكْرِ مُنطلقِي في قلبِ باريسَ أو في ضـفة السِّـين

وتتجسد الغربة النفسية في الديوان بالتأويل وبالتصريح من قبل الشاعر ما يبرز أزمته النفسية الناتجة عن عوامل عدة كلها ذات صلة ببقائه في أم درمان أو بقعة النكد كما يسميها (الواثق، 1973م،22):

مونيكُ ما زلتُ في أم درمان مُغتربا حتى كـأنَّ وجـودي عـنـدَهـا عَـدمُ

وفي غمرة هذا اليأس وذاك القنوط تبدو بارقة أمل بعيدة في نفس الشاعر، وهو وإن تمنى لها العذاب فيبرر ذلك بالرغبة في تطهيرها، فهو يلتمس لها بعض العذر، فقد أجبرتها مواقف أهلها على هذا السلوك المعوج، فهي الكسيفة النفس مكسورة الخاطر والجناة، وهم أهلها -من كانوا سببا في ضياع الوطن- كأن لم يفعلوا شيئا، وهي تشعر بالذنب وتتمنى أن تثوب لرشدها (الواثق، 1973م،28):

يـا ليتَ شِـعري أيُمحى ذنبُ غـانيةٍ وتغسـلُ العارَ من سَـاحاتها السَّحُبُ

فـقَـدْ لمحـتُ نـقـاءً في سَـريـرتها إن ذُكِرَ الظهرُ فـأم درمـان تنتحـبُ

ويتوجه بالسؤال مباشرة لمن كانوا سببا في انحراف أم درمان تلك الغانية المجني عليها (الواثق، 1973م،28):

قُلْ للألى ضاجَعُوا أم درمانَ هل أرِقُوا بعد الحرامِ وهل في صَمتِهم غرقوا؟

ويتجلى ذلك التساؤل بوضوح أكثر في قصيدة (فضيحة أم درمان) في قوله بعد أن قذفوها بالزنا، وأنها قد أنجبت ابنها من سفاح؛ فانهالوا عليها بالضرب مرة وبالرجم مرة أخرى. (الواثق، 1973م،29):

أتجلِدونَ عَجُوزا عَظْمُها خرِعٌ منكوبةٌ ذات أوجاعٍ وأتْرَاحِ

وتتركونَ بها الجاني لِسَطوتهِ من مستحلّ شديدِ البطشِ نطَّاحِ

الوظيفة الوجودية:

نقصد بها الوظيفة التي ترتبط بالماهيات أو الوجود، وبمعنى أدق هي الوظيفة التي ترتبط فيها العلامة بماهية معينة كالحب والكراهية والسعادة والضجر والشعور بالغربة، وغيرها من الماهيات التي تتعالق فيها العلامة مع فكرة الديوان ككل. ومن أهمها فكرة الإصلاح التي ينشدها الشاعر لمدينته أم درمان، ولوطنه عامة حتى وإن سلك لذلك مسلكا غير معهود فبدا قاسيا على مدينته وعلى وطنه، ولكن يظل موقفه ثابتا لا يتماهى مع هذه الصورة الشائهة فيعلن الفراق إذا استحالت استقامتها (الواثق، 1973م، 29):

وقد سئمتكِ يا أم درمان فاستمِعي إما استقيمِي وإما اليومَ نفترقُ

ويتجلى البعد الفلسفي الوجودي من خلال قراءة الديوان قراءة تكاملية وسيميائية الفهم الأنطولوجي أو الوجودي "رهن بالجواب عن سؤال الوجود، وأساسها البحث في خفايا النص ودلالته القصية في ضوء سياقاته الوثائقية ومقاماته الوجودية بقراءة تتطلب آلية التأويل للحقائق الرمزية التي تيسّر لنا فهم الكون وتحث الإنسان على مزيد معرفة نفسه". (الحلواني، 2012م، 61) وقد ظل شاعر أم درمان تحتضر دائم البحث والتأمل في حاضره، هاربا منه في أغلب الأحيان، بحثا عن ذاته ووجوده؛ فيعلن الرحيل من غير رجعة (الواثق، 1973م، 32):

إن تبلغنّي قرى باريسَ أجنحةٌ قُربَ الحقولِ فلا تشتدّي في أثَري

متى حللتُ فنهر الرونِ يُشعرني بأنَّني بشرٌ من طينةِ البشرِ

الوظيفة الإيديولوجية:

الأثر الأيديولوجي في الأدب يتجلى من خلال البحث عن العلاقة بين الأدب والنزعة العقائدية أو السياسية وقد يكون الجانب الأيديولوجي واضحا وصارخا في العمل الإبداعي. وقد يتدثر خلف الجماليات أو القيم التعبيرية الأخرى، والأستاذ الواثق لم يكن ينطلق من أيديولوجية سياسية واضحة وصارخة، وإنما كان حسه الوطني الخالص هو الغالب على ديوانه من خلال التأويل، وإن كنا لا نعدم إشارات فكرية وعقائدية هنا وهناك في الديوان في سياق تشخيص أدواء وطنه ممثلا في مدينته أم درمان، فكثيرا ما تعرض بالرفض لمسلك الاتجاهات العقائدية المتصارعة في وطنه، وهي في نظره مما أقعده وأهدر طاقاته، صراع يميني ويساري باسم الدين مرة وباسم الاشتراكية التي رمز لها بأحد مقريها (لينين) في أكثر من موضع (الواثق، 1973م،17):

قَامَتْ تُذكِّرني ما قال لينينُ

إنَّ الحكيمَ الذي ترجو المساكينُ قال السقاةُ لنا لا شكَّ مجنونُ
كوني كخالتك أم درمان لاهيةً إنّ العقائدَ إرهاقٌ وتوهينُ
إنَّ العقائد في أم درمان مهزلةٌ أوْدّى بحُرمتها تجرٌ دهاقينُ

ولا شك أنه يعني مسلكا بعينه سلكه السياسيون في بلده فكانت التجارة باسم الدين مرة وباسم الاشتراكية مرة أخرى وقد اضطربت مواقفهم بين اليمين واليسار فيقول (الواثق، 1973م، 18):

حَينا يطوفُ ببيت اللهِ ساكنُها سعيا وحينا على أعتابِ لينينِ
فقلتُ شأنك يا أم درمان حَيرَّني معوجّةُ الفكر أم منقوصةُ الدينِ؟

فهذه الصورة الشعرية الساخرة من مسلك أهل أم درمان أوضح ما تكون بيانا في اضطراب مواقفهم وحيرتهم.

خاتمة البحث:

انطلقت دراسة ديوان (أم درمان تحتضر) للشاعر محمد الواثق في التعرف على ما تتضمنه القراءة السيميائية من تلمس للمعاني المستترة والمتوارية خلف العلامة الجامعة (أم درمان) مقروءة مع العلامات

الفرعية التي ترجع إليها بصلة أو بسبب وفق قراءات المنهج السيميائي البيرسي للعناوين والنصوص والذي يقوم على ثلاثية مدلول العلامة التي تمثل الماثول والذي يحيل بدوره إلى موضوع تأويلي استعانة بمؤول تدخل في سياقه العلامة متنقلة من دلالة إلى أخرى وفق حركة التأويل أو السيميوز في المصطلح السيميائي. وقد اتضح من خلال القراءة المتأنية للعلامات أن الديوان ليس كما يظن البعض أنه مثل نظما عبثيا وتشكيلا أسلوبيا وبيانيا لا طائل ولا قضية من ورائه. فقد تبين أن الديوان يحمل في طياته رسالة وطنية بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والثقافية. وقد اختار صاحب الديوان هذه الطريقة في المعالجة عن قصد ليلفت انتباه بني وطنه إلى زيف معتقدهم الوطني الشكلي وليطلب منهم تصحيح مفهوم الوطنية حتى تنعكس إيجابا على وطنهم في سلوكهم الفردي والجمعي.

ولما كان منهج الدراسة مستعينا بالمنهج السيميائي البيرسي استأنست الدراسة بآلياته وأدواته فانطلقت الدراسة بعد التعريف بالسيميائية مفهوما ومصطلحا مع التركيز في تعريفها على سيميائية عالم السيميائيات الأمريكي شارلس ساندرز بيرس وفق ما يقتضيه المسار التأويلي البيرسي، فبدأت الدراسة بالمقام التلفظي ممثلا في المؤول المباشر للعلامة ثم انتقلت الدراسة تماشيا مع ما سماه بيرس بـ"السيميوز" فانطلقت العلامة الجامعة (ام درمان) ومتعلقاتها التي ترجع إليها إلى مسار التأويل فيما عرف بالمؤول الدينامي، ثم خلصت الدراسة للمؤول النهائي ممثلا في الوظائف التي اضطلعت بها العلامة ومتعلقاتها وأبرزها الوظيفة النفسية والإيديولوجية والوظيفة الوجودية.

وتتمثل أهم نتائج الدراسة في:

- أن الشاعر لم يكن يقصد الهجاء لذات أم درمان، وأنه حينما يقسو عليها فهو من باب الرغبة في صدمة الشعور العام حتى ينتبه إلى الرسالة التي يريد إيصالها حتى وإن بدت قاسية مؤلمة في ظاهرها، فهو مثل الطبيب الجراح يعمل مشرطه في جسد مريضه ليستأصل موضع الداء ويبدأ مسيرة العلاج.
- تجلت في الديوان علامات أيقونية وأمارية تدل على حب الشاعر لأم درمان، وأنه قسا عليها من باب الرغبة في الإصلاح وتشخيص ما بها من أدواء وأخطاء، متمنيا لها التطهير والتكفير عن حالها.
- شكلت المرأة حضورا لافتا في الديوان أولا في شخصية أم درمان التي حرص على تصويرها أنثى في عدد من القصائد، ولكنها أنثى متبدلة مخادعة أحيانا. وصور نساءها كالأفاعي سما واحتيالا واغتيالا. ورغم ذلك فقد صورها زوجة له، وتمنى منها الولد، ولكنها ظلت عقيما في دلالة على عقمها في إنجاب أي وجه إيجابي ينتظر، بينما مثلت (مونيك) الوجه المشرق للمرأة والحياة.

- استخدم الشاعر كثيرا من الثنائيات الضدية التي عالج فيها موقفه من أم درمان، ومن المرأة خاصة، وعند حديثه عن الغربة والاغتراب. وعند حديثه عن مونيك وعن نساء أم درمان.
- ظهرت في الديوان براعة الشاعر اللغوية والأسلوبية والبلاغية والتي كان لها الأثر البالغ في توجيه اهتمام قارئ الديوان مثل أسلوب التكرار والتقديم والتأخير والتضاد وغيرها من أساليب البلاغة.

المصادر المراجع

أولا: المصادر

القرآن الكريم

- الشاعر محمد الواثق. **ديوان أم درمان تحتضر**، دار الثقافة، بيروت ط1، 1973م.

ثانيا: المراجع

- بنكراد، سعيد بنكراد، **السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها**، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية،اللاذقية، ط 5، 2002م.
- بنكراد، سعيد بنكراد، **السيميائيات والتأويل مدخل لسيميائيات** ش. س. بيرس، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005م.
- البرقوقي، عبد الرحمن، **شرح ديوان المتنبي**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1980م.
- بلال، عبد الرازق بلال، **مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم**، أفريقيا الشرق، المغرب، 2000م.
- تشاندلر، دانيال تشاندلر، **أسس السيميائية**، ترجمة: طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008م.
- التقي، محمد عثمان، حوار أجراه الأستاذ التقي محمد عثمان مع الشاعر بالملحق الثقافي لصحيفة الصحافة، 22 أغسطس 2006م.
- الحلواني، عامر:

- **على عتباتها تبنى النصوص**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، وحدة البحث في المناهج التأويلية، دار نهى للطباعة والنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، 2012م.
- **في القراءة السيميائية**، كلية الآداب بصفاقس، تونس، 2005م.

- بو خلخال، عبدالله بو خلخال، **مصطلح السيميائية في البحث السيميائي العربي الحديث**، أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة عنّابة، 1995م.
- خمري، حسين خمري، **نظريّة النَّص من بنيّة المعنى إلى سيميائية الدّال**، منشورات الاختلاف، الدَّار العربيَّة للعلوم ناشرون، الجزائر، ط1، 1997م.

- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، **جمهرة اللغة**، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، ط1، 1987م.
- دي سوسير، فرديناند دي سوسير، **فصول في علم اللغة العام**، ترجمة أحمد نعيم الكراعين، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ،1985م.
- ذريل، عدنان بن ذريل: **اللغة والدلالة، آراء ونظريات**، اتحاد كتّاب العرب، دمشق، 1981م.
- سعيد، عبد اللطيف سعيد، **"ليت شعري"**، مقال منشور بصحيفة الصحافة السودانية، 15يناير 2007م.
- سلدن، رامان سلدن، **النظرية الأدبية المعاصرة**، ترجمة جابر عصفور، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، 1990م.
- الضبي، المفضل الضبي، **المفضليات**، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط6، دار المعرفة، مصر، د.ت.
- العابد، عبد الجيد العابد، **النص السردي بين غفل الإكسيولوجيا وتناسل الإيدولوجيا، قراءة في رواية وقت الرحيل** لنور الدين محقق، 2013م.
- العباسي، أسعد الطيب العباسي، **محمد الواثق وهجاء المدن السودانية**، منشور أكتوبر، ويكيبيديا، 2009م.
- العابد، عبدالمجيد العابد، **سيميولوجية الرواية العربية**: مقال، ضمن مجلّة علامات السعودية، ج74، مج 19، يوليه، 2011م.
- عبد الخالق، محمد عبد الخالق، **الواثق على بوابة المدينة المحرمة**، مقال بصحيفة أخبار اليوم السودانية، 25 أكتوبر 2006م.
- عياد، محمد بن عيّاد، **في مناهج البحث**، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس، تونس، وحدة البحث في المناهج التأويلية، 2007م.
- الغذامي، عبدالله بن محمد الغذامي، **الخطيئة والتكفير**، النّادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1985م.
- فاخوري، عادل فاخوري، **حول إشكالية السيميولوجيا " السيمياء "**، مقال ضمن مجلّة عالم الفكر، مجلد 24.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد الفراهيدي، **معجم العين**، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ت.

- فوغالي، باديس، مصطلح **السيميائية والترجمة، مقاربة تأصيلية إجرائية**، كلية الآداب، جامعة العربي بن المهيدي، أم البواقي، الجزائر، بحث مقدم في فعاليات الملتقى الدولي الثاني المنعقد بالجزائر يومي 14-15- أبريل 2010م.
- مرتاض، عبدالملك مرتاض، **الأصول السيميائية في فكر شارل بيرس**، مقال: ضمن مجلّة علامات السعودية، ج4، مج 1 يونيه، 1992م.
- مرتاض، عبدالملك مرتاض **دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة " أين ليلاي"** لمحمد العيد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1992م.
- ابن منظور، **لسان العرب**، لبنان، بيروت، دار صادر، 1968م.